

الدهر المحل

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

وأذهله السقوط إذ
باغته من حيث لم
يقدّر فصكه صكاً
وزعزع ثقته بنفسه .
ولم يستطع البقاء في
المدرسة معني من
المصروفات المدرسية
فرجع إلى قريته

حزيناً ينوي صادق النية أن يدرس في داره
ويتقدم إلى الامتحان مرة أخرى ، ولكن كانت
الحياة شاقة مضطربة يكتنفها القلق والازعاج إذ
أن اخوته ضايقهم أن يقبع في عقر داره مطهئاً بين
كتبه ويجهدوا هم أنفسهم طيلة يومهم ، فران الهم
على صدره ونقهقر درجات وهوى لدى الامتحان
فكان سقوطه هذه المرة أنكى من المرة الأولى وأشد .
وسرعان ما انبرى له إخوته قائلين : إما العمل معنا
في الحقل وإما أن نرى لك رأياً غير المذاكرة . فساءه
تعصبهم عليه واستبدادهم به فحزم أمتته وقال لهم
غاضباً : « لا عجب أن يتربص بنا أبناء عمنا
ويقيدونا بالفقر كما قيدوا أبانا من قبل ، مادمت
- وأنتم إخواني - تأخذكم القسوة على
تفسدون مستقبلى ... فلتكن أمنيته ، وهانذا
هاجركم وهاجر القرية والمديرية ، ولسوف يأتيكم
نبأى بعد حين » . وترك القرية غير مستمع إلى
توسلات ، يدفعه الغضب الشديد ، ويخيل إليه أنه
سيغزو المدن ويقهر البلدان ، ويلم المال حتى يعلو
شأنه عن كل شأن

ولد خليل بعد وفاة أبيه بيضعة أسابيع ، ولم
يكن اليتيم أشد ما ادخرته له الحياة ، لأن أباه كان
قد عاش عمهdy الشباب والكهولة في فقر مدقع
قضى به عليه نزاع بينه وبين أبناء عمومته على
قطعة كبيرة من الأرض ما زال يؤجل الفصل
فيه أمام المحاكم أعواماً كثيرة حتى تقضت
حياة الرجل في ضيق . وشب الطفل بين أحضان
أمه مع إخوة ثلاثة له يعيشون جميعاً على ريع ثلاثة
فدادين لأهمهم ، فكان من أمر الإخوة الثلاثة
أن عملوا في الحقل على قناعة بما قسم لهم في
حاضرهم ، وعلى أمل أن يموضهم الله عن
جهدهم وصبرهم خيراً في مستقبلهم . وكان من حظ
خليل أن أرسل إلى الكتاب ثم إلى مدرسة
الرقازيق الابتدائية على كره من اخوته ؛ وآزره
النجاح فنال الشهادة الابتدائية وأدخل المدرسة
الثانوية . وما زال مثابراً على نشاطه صابراً على
فقره حتى نال شهادة الكفاءة . وبث النجاح في
نفسه إيماناً وطيداً وعزماً أكيداً وثقة مطمئنة ، لولا
أن قدّر لحياه غير ما بشرت به طلائعها فزلت به
القدم وخانه الحظ فسقط في امتحان البكالوريا ،

حط خليل في القاهرة وقصد لساعته - مستعيناً
بإرشاد الناس - إلى شبرا حيث قريبه الناظر
وكان الرجل يقيم في بيت كبير قديم ، مكوّن
من طابقين ، جعل من الطابق الأول فصول
مدرسته ، ومن الثاني نصفه للإدارة ونصفه سكناً
له ، وكانت زيارة خليل مفاجأة لم يتوقها فرحب
به قائلاً :

« أهلاً وسهلاً .. كيف حال والدتك وإخوتك ؟
أهلاً ... أهلاً ... لم لم تنبئني بمجيئك ؟ » فأجابه
مبتسماً :

« لأنني حتى مساء أمس لم يخطر لي السفر
على ذهن ، ولم أكن أقدر أني تارك القرية قبل
استدارة عام دراسي كامل . فبدت الدهشة على وجه
الناظر وتساءلت عيناه ؛ فاستطرد خليل قائلاً
بلهجة حزينة :

« ضاق بي إخوتي وضقت بهم فالتفت في ذهني
فكرة الهجرة ، وسرعان ما أبرزتها إرادتي إلى حيز
الحقيقة فارتحلت عنهم » فضحك الأستاذ وقال :

« إن تاريخ أمرتنا يتلخص في قصة نزاع شقي
منذ القدم ، يأكل فيه أبناء العم أبناء عمومتهم
والإخوة أبناء أبيهم . وعلى كل حال خشناً فعلت
فإن القرية لتضيق عن مواهبك . ولكن على
فكرة ... قل لي ما شأن قضيتكم الآن ؟ » فلم
يتالك خليل نفسه من الضحك وقال :

« كمهدك بها ، ميتة حتى يأذن الله فيبعثها ...
وقد قابلنا الحامي منذ أجل قريب فوعدنا ومناها
وما يعدنا إلا هواء كما وعد أمناً من قبل ، وكما وعد
أبانا محاميه رحمة الله عليهما من قبل القبل ...

وكان له قريب يدعى عبد الباسط الغر ، يدير
مدرسة أهلية في العاصمة ، فجعل غايته إليه ، وبني
آماله عليه

وكان خليل يبدو محافظاً على دينه ، وإن وقف
به إسلامه عند حدود المظاهر ، فكان يصلي الصلوات
الخمسة ويصوم رمضان ويقرأ القرآن ، ولكن قل
أن تهتز نفسه لمواطف الإيمان العميق ، أو تنبعث
في قلبه خلجات التدين الصادقة ؛ ولذا أمكن أن
تستقر في وجدانه آراء يبرأ منها التدين والأخلاق
الفاضلة كإيمانه بالشطارة واعتقاده أنها فضيلة ما دامت
تعين على العيش والظفر في معترك الحياة . ولم يتخرج
من الكذب والرياء والاحتيال ما دامت هذه جميعها
من دعائم الشطارة التي تسد خطاها نحو أهدافها
النافعة ؛ ولم يتنبه ضميره إلى التنافر القائم بين هذه
المبادئ خيرها وشرها فنجا من الأزمات النفسية
والأخلاقية كأنه أشخاص مستقلون في كينونة
واحدة . وظل راضياً هادئاً يعمل لدينه بما يفرضه
عليه من العبادات ، ويعمل لندياه بما يغريه به الهوى ؛
وسار في طريق الحياة قدماً تدفعه هذه البواعث
المتناقضة كأنه آلة صماء يستعين بها الطبيب على إنقاذ
النفوس ويستعملها الأثيم في إزهاق الأرواح الأبرياء ...
وعلى هذا النحو كان تلميذاً مجتهداً متعبداً ، ولكنه
استعمل مكره وحيلته ، فشارك الآكل طعامه ،
والمكسو ثيابه ، والقارئ كتبه ، حتى ساءت
سمته وامتن ذكروه ، وخاض التلاميذ في سيرته ؛
ولكنه كان يعد نفسه دائماً المظفر المنتصر مادام
يستطيع الاحتيال على أسباب العيش ؛ وهون عليه
الفقر كبرياؤه وكرامته

« للعبد لله » وعلى كل حال انتظر فستعلم كل شيء
في حينه »

ومن غداة اليوم التالى ابتدأ الأستاذ خليل عمله
كمدرس . ولم يكن ذا استعداد خاص للتعليم ،
ولكن ذخيرته من الحيلة أيدته بالقوة والثقة فقام
خير قيام بما يتطلبه عمله من الثبات والظهور بمظهر
العلم والعرفان وألهمته مواهبه ما يسوس به الأطفال
ويضبط النظام ؛ على أنه لم يلبث أن فطن إلى أن
جميع زملائه يستندون في الغالب إلى التهوريش
والتضليل لا إلى العمل الصادق والدرس الحق ،
فاطمأنت نفسه وهوش وضلل وكان من المتفوقين .
وكان يهاب قريبه وناظره ويعمل له الحساب ، ولكنه
— بطول الممارسة — اطلع على خبيثة نفسه ، فألفاه
لا يحتفل بالترية والنظام احتفاله بالحفلات وإيراداتها
ففي الحفل المدرسى توزع بطاقات الدعوة بالثبات على
أولياء أمور التلاميذ ، وبالعشرات على كبراء الحى
وأغنيائه ، وفي أثناء الحفل يدور صفار التلاميذ
على كبار المدعوين بالورد وغيره من الأشياء الخفيفة
التي يمدحها المتورطون منهم ثمه أضافاً مساهمة في
تنشئته الفقراء ... وكانت وظائف القائمين على هذه
الحفلات أقرب ما تكون شبيهاً بوظائف محصلي
الضرائب . وقد لمب الأستاذ خليل دوره بمهارة جلبت
له العطف والثقة فأضحى لدى ناظره في منزل مكن
ولدى نهاية الشهر الأول من حياته الجديدة
قصد مع القاصدين إلى حجرة سكرتير المدرسة ،
ليقبض مرتبه — ولم يكن قد سأل عنه تأدياً منه
واطمئناناً إلى تقدير قريبه — ولشد ما كانت دهشته

« كل شيء رهن بمشيئة الله فاصبر الصبر الجميل
والآن أخبرني علام غزمت ؟ » فنظر إليه بعينين
مستظلمتين وقال : « أرغب في أن أجد عملاً »
« أي عمل ؟ »

« آمل أن أجد في مدرستك وظيفة مناسبة »
قصمت الأستاذ مفكراً لحظة ثم قال :
« أظنك لم تحصل بعد على البكالوريا ؟ »
« نعم ولكن معلوماتي لا تقبل عن أحد من
حاملها »

« فليكن . فان عندي مدرسين لا يحملون سوى
الكفاءة ... فما هي المواد التي ترى أن تدرسها ؟ »
فانمش الأمل نفس خليل وتيقظت ثقته بنفسه
وتنبهت شطارته فقال بثبات :
« كل ما تعهد به إلى .. عربى .. انجليزي ..
حساب .. رسم .. ديانة .. ألعاب رياضية .. »
« حسن ... وفضلاً عن ذلك فسأعهد إليك
بقسط في إدارة الحفلات »
« أي حفلات .. ؟ »

« الحفلات المدرسية ... التي تدر على المدرسة
ريعها الحقيقي وخاصة بعد أن أصبحت الاعانة الوزارية
غير مضمونة »

« وما سبب ذلك والوزارة لا تني عن تشجيع
المدارس الأهلية .. ؟ »

فتهد الأستاذ وقال :

« لأنني تورطت في تأييد الوزارة السابقة
وخطبت في حفل عام أقيم لتكريم الرئيس المستقيل ؛
ولا أظن الوزارة الحاضرة — والمداوة بين حزبيها
وحزب الوزارة المستقيلة مشهورة — تنسى هذا

عنه الظنون وتنفي عنه الريب ، أو فاهون الحياة
جميعاً وما أعبت الجهد يضيع في سبيلها

واستأنف أساليب الحياة التي كانت يتبعها
بإخلاص على عهد التلمذة في مدرسة الزقازيق ،
وتربص بالحفلات المدرسية التي قال الناظر أنها تدر
على المدرسة ريعها الحقيقي ، تلك الحفلات المغرية
حيث تتراكم بطاقات الدعوة أكداً ، أكداً
وتتجمع التبرعات من كل صوب ، ويسهل اللعب على
من كان مثله نشيطاً شاطراً حذقاً ، وجرت يده
في خفة ودبت الحياة في جيوبه المهجورة فاطمأن
نوعاً إلى الحياة واستطاع أن يتمتع نفسه ببعض ليالي
القاهرة الفاتنة طوراً في المقاهي وطوراً في الحانات ،
ولكن الأيام لم تتركه في غييه يجمع فلم يلبث أن
أحس بمراجعة رئيسه تحيط به ، وبمحذره يأخذ عليه
المسالك ، فكف مقهوراً خيفة أن يفقد الرهان كله
ويخرج « من الولد بلا حصص » ولكن أتى له
الصبر ونداءات الشهوات لا تخمد لها نار في قلبه
أو يخف لها صراخ !

وهدهاء تحريه إلى مقهى قريب من المدرسة تسهر
فيه شرذمة من إخوانه المدرسين يلعبون الورق إلى
ساعة متأخرة من الليل فارتأى أن يسلك جماعتهم
وأن يجرب حظه ، وقد قابلوا رغبته بدششة لا تخفى
لأنهم ظنوه بادی الأمر حنبلياً لا يراجع نداء دينه
الحنيف إلا واحداً منهم تحدهاء بنظرة ظفر وقال
وهو بقمقه :

« ألم أقل لكم أي أعلم مالا تعلمون ؟ »

وشاركهم في لعبهم ، وجاء الحظ غنياً لآماله ،
فتذهبت فيه غريزة الشطارة وانصرف بكليته إلى ترويض

حين سلمه الرجل ثلاثة جنيهات لا غير . وراجعه في
الأمر ولكن الرجل أكد له أنه سلمه مرتبه
بالكامل . فعهول إلى حجرة الناظر والجنيهات في
يده ، وما إن رأى الرجل « المرتب » في يده وطالع
الدششة المرتسمة على وجهه حتى فهم بداهة
ماوراءها ، فابتسم ابتسامة صفراء وقال بهدوء : —
« أغير راض أنت ؟ ... »

طبعاً ... خصوصاً وإني أرى أن من المدرسين —
من هم دوني عملاً ونشاطاً — من يجاوز مرتبهم
الخمس جنيهات أو يزيد ... » فاستطرد الرجل وهو
ما يزال محافظاً على هدوئه : —

« لا يفرنك قولهم ولا ما هو مقرر لهم ، فهذا
شيء والقبض شيء آخر ... وثق أنك أوفرهم حظاً .
ولا تنس أنك تشاركني سكني وأنى لن أغفلك
من المكافأة كل حفل مدرسي »

« هذا حسن ، ولكن ... »

« لا لكن يا أستاذ خليل ، أنت قربي ويمز
على أن تشكو . ولكن ما حيلتي وأنا مدير أعمال
خاسرة لا تكاد أرباحها تنفي بتعابها ؟ ... فلتقتنع
بهذا الآن وعزاؤك أن اخوانك لا يجدون في
الحكومة عملاً ، وإذا وجدوا فلن يطمعوا في مثل
مرتبك هذا »

وهنا ذكر غضبته الفرعونية أمام إخوته
وتلويحهم بقبضة يده وهو يقول : « ولسوف يأتيكم
نبأى بعد حين » فشمع بخزي قاتل وخيبة أمل مريرة
إذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يرى لنفسه
حيلة ، وهل تنقصه الحيلة ؟ . وها هي ذى المظاهر
جميعاً — من عبادة وصلاة وتلاوة قرآن — تدفع

القنوط يطالعه في كل مكان

وفي أول مارس دس الجنيهاث الثلاثة في صدره وترك المدرسة هائماً وإخوانه يتغامضون، ولم يلتفت إليهم لأنه كان مشغولاً باشباع نهمة في حدود الأغلال التي قيده بها الدهر، ولم يكن يبرأ — حتى في هذا اليوم السعيد يوم أول الشهر — من الابتأس والكآبة، لأنه يعلم أنه لا يملك حق التصرف في المبلغ الذي معه على ما يشتهي وإلا عرض نفسه لثلاثين يوماً قاحلة ينسى فقر ساعة منها ليل هذا اليوم السعيد، ولكنه لم يدر بخداه حسابان تلك المفاجأة التي كان يدّخرها له الدهر

فقيم هو يضرب في الأرض إذ رأى رجلاً يمر به مسرعاً. عرفه من النظرة الأولى، فأسرع نحوه حتى لحق به؛ وأحس به الرجل فتوقف والتفت إليه واستولت عليه الدهشة فصاح: —

« خليل افندي... ما الذي أتى بك إلى هنا؟ إنها مصادفة عجيبة تجمعني بك حين أفكر فيك. فتمجّب مني واشكر الله كثيراً.. »
« ولم تفكر فيّ يا حضرة المحامي؟ »

« كي أبشرك يا سيدي فقد كسبتم القضية ورددت إليكم أرض أبيكم وديعما التجمع... »
وكانت كل كلمة تخرج من فم المحامي تهز قلب خليل هزاً عنيفاً حتى خارت قواه وأحس أن الأرض تميد به فاستند إلى الحائط. أنه فرح فوق ما يحتمل، أما المحامي فاستطرد وهو بهم بالسير: —
إني مسافر هذا المساء إلى الزقازيق، وسوف

يده على الخفة والرشاقة... وسرعان ما تنبه الرفاق إلى هذا الرابع أبدأ... وكان من المسير أن يخفى سره إلى الأبد فحامت حوله الشبهات، وتجلت في عيون لاعبيه الريبة والحذر؛ وما زالوا يدافعونه حتى قاطعوه صراحة ونحوه عن مائدتهم فأب ملوماً محسوراً...

ومرت عليه الأيام الطويلة وهو يعاني الفقر واليأس، وأخيراً قتش في جمبته فلم يجد سوى الاقتراض مخففاً عن نفسه ومشبعاً لرغباته وشهواته فاقترض، اقترض من الناظر ومن المدرسين ومن البواب نفسه. وما طوب بأداء الدين ماطل وسوف وأجل وتهرب، فارتفعت الشكوى منه على كل لسان، واضطر سكرتير المدرسة أن يحجز على مرتبه فلم يف بالبالغ المطلوبة. وهنا اشتد الغضب بالناظر واستدعاه إليه وقال له معنفاً:

« إنك تخيب أملى فيك، وتضعني في مركز دقيق أمام مسؤولي، وإني أصارحك بأنني لن أصبر على تصرفاتك بعد الآن »

ثم جمع إليه الموظفين وقال لهم في لهجة حازمة قاطعة:

« من يقرض خليلًا بعد الآن فستقع عليه تبعة

عمله... ولن يكون مرتبه ضماناً لأحد... »
وهكذا وجد نفسه في عزلة رهيبة، يعيش بين أناس لا تربطهم به صلة عطف أو مودة، يضيقون به ويضيق بهم، ويتحاشونه ويتحاشاهم، فأحاط به الهم وعاش عيشة نكدية يتحمل الحرمان في جزع، ويتلهف على الأمل يميناً وشمالاً فلا يلقى إلا وجه

أقابل اخوتك غداً ... »

« خذنى معك ... »

« إذا شئت ... ولكن ينبغي أن تعلم أن

أمامكم عدة أيام — ربما بلغت الأسبوع —

تم فيها بعض الاجراءات القانونية قبل أن تتسلموا

أموالكم

« إيه ... »

فاه بها وقد جمد وجهه ، فضحك الأستاذ وقال :

« أخرى بمن انتظر السنين راغماً أن ينتظر

الأيام راضياً ... »

فليكن ، لقد أصبحت السعادة منه قاب قوسين

أو أدنى ، ورأى أن من الحكمة أن ينتظر هذه الأيام

في القاهرة لأنه كره أن يقيم بين إخوته فقيراً ،

ولو أياماً معدودات وهو الذى هجرهم غاضباً متكبراً

وإنها لسعادة عظيمة أن ينتقل الإنسان فجأة

من الفقر إلى الغنى ، شبيه به أن يجد عبد نفسه على

عرش دولة من السادة ، فأى سعادة بعد بؤس ،

وعزاً أثر ذل ، وظفر عقب خذلان ؟

وقد تحسست يده محفظته فشر بفبطة ، وذكر

أمانيه منذ لحظة فأنفرت شفتاه عن ابتسامة عذبة

وهمس لضميره : « أستطيع أن أعيش أول ليلة في

حياتى »

واستسلم للأحلام ، فغمزته تياراتها المضطربة ،

ولفحه لهيبها ، فتشعبت به المسالك ، واختلط عليه

الأمس ، وخيل إليه أن جنيناته الثلاثة لن تشبع

نهمه أو تطفى شهوته

فلما أن هدأت نفسه واطمأنت عواطفه النائرة

رأى الأمر سهلاً يسيراً ووجد « خطة » السهرة

جاهزة بين يديه حاضرة في قلبه من طول ما صورتها

له أمانيه ، وصاغتها أحلامه

فسار بأقدام مطمئنة إلى « الحاتى » وآثر

الحاتى على غيره ، لأن اللحمية كانت أعز المأكول

لديه وأشدّه تمنعاً عليه ، وطلب ما أملاه عليه نهمه

وانكب على المائدة يلتمهم ما عليها بجشع وشراهة .

فسكت عنه الجوع ، ولم يكف حتى اضطر إلى

الامتلاء والشبع ، وأخطأ تقديره إذ ترك للمائدة

لحماً شهياً

ثم عرج بعد ذلك إلى حانة هادئة شرب فيها

وعل حتى دارت رأسه

ثم قادته الخمر — عند منتصف الليل — إلى

فراش لا يذوق النوم الراقدون عليه

وعند الضحى غادر البيت كأنه غير رجل

الأمس . كان تمعاً متهافناً مصفر الوجه ، يدوى

الصداع في رأسه ، وتلتوى شفتاه من الاشتياز ،

فتعجب كيف تنتهى اللذة إلى هذه الحالة

المریضة التى ترهّد فى الدنيا بأسرها ... وذكر

تلهفه على الملاذ ، وتحرقه على الطعام والشراب

والشهوات ، وذكر أنه كيف روى نفسه من هذه

جميعاً حتى اتخمها فردت إلى مايمانى من سوء

وضراء ، وكل هذا فى ليلة واحدة ... ليلة واحدة

لا أكثر ... ! وأأسفاه ... لقد كان يظن خطأ

أنه ذو موهبة وقدرة على الاستمتاع بالحياة الدنيا

فاذا به عليل مسكين يتقلب على وجهه عند الكربة

الأولى ... ألا سحقاً للدنيا التى لا ترضى فى فقر

ولا تسعد حين الثراء ، وسرت به روحه متلهفة

إلا أن جيوبى خالية من النقود وأنا فى شدة الحاجة إلى أجرة السفر وسوف أرد إليك نقودك أضمافاً لدى وصولى القرية ...

« قد كنت لا ترد وأنت مقيم بيننا ... »

« تغير الأمر وصرت من الملاك »

فاقترب منه الشاب وشم فمه ، وارتد مشمئزاً

وهو يقول :

« صدقت ... لا ريب أنك تملك الضياع

الواسعة ... أنا أيضاً أملك مثلها حيناً قصيراً من

الليالى السعيدة ...

ولكنى أعجب كيف تبقى ربح هذه الخمر فى

رأسك حتى منتصف اليوم الثانى ... »

« لا تهذ . إن ما قلت هو الحق المبين »

فضحك الشاب وهو لا يستطيع تصديقه وسأله

بلهجة تصنع فيها الجد :

« أى خمر هذه ؟ سسمالى وأنا أشرب وأملك

الضياع وأقرضك ما تشاء ... »

فولى عنه يائساً وهو يعض على أسنانه ، ولم يكن

حظه أعظم توفيقاً مع غيره ، فسألهم واحداً واحداً

وردّوه جميعاً فى لهجة صارمة حتى لم يبق ممن لم

يسأل سوى حضرة الناظر والبواب . وكان يخشى

الناظر ويتحاشاه فذهب إلى البواب ، ولما أحس

الرجل بأن الحديث يحوم حول الاقتراض قال مسرعاً

« معذرة يا سيدى ، لقد سبق منى عيّن الطلاق

ألا أقرضك بعد المرة الأخيرة ، وقد طلّقت امرأتى

مرتين - بدافع الخلافات الزوجية - وردّتها

« والثالثة ثابتة » وخراب بيتى قضاء لا يرضيك »

فصاح فى وجهه غاضباً : - « الله يخرب بيتك »

— وهو يمانى الألم والاشمئزاز — إلى قرينته الحبيبة

وتنمى على الله لو يجد نفسه سريعاً بين ديارها ،

يزرع أرضه ويهنا بعيشة زوجية هادئة بعيداً عن

مهالك النفوس ومشترات الشهوات ، وبعيداً عن

الناس جميعاً الذين يعيش بينهم فى عزلة رهيبة وسط

سياج من الحذر والمقت

وانتهى عند ذاك إلى المدرسة ، وتذكر وهو

يضع يديه فى جيوبه أنه خالى الوفاض وأنه أنفق آخر

قرش من جنياهه الثلاثة وخرج مشكوراً مصحوباً

بالسلامة ...

إن ما ينبغي له الآن أن يقترض مبلغاً زهيداً

يسافر به إلى بلدته ويسدل ستاراً كشيافاً على هذه

الحياة التكدية ؛ وإذا كان عشر هذا المبلغ مما يستحيل

عليه اقتراضه وهو مفلس مشهور بالاحتيال فما يظن

أنه يمز عليه الآن اقتراضه وهو غنى من الأغنياء

وعين من الأعيان

وقصد من فوره إلى أول من لاقاه من مدرسى

المدرسة فحياه على غير توقع وقال له :

« من فضلك يا شكرى أفندي ... إنى فى

حاجة شديدة إلى مبلغ زهيد لآنى ... »

فدهش الرجل وقاطعه متسائلاً وهو لا يخفى

دهشته :

« أتقترض ولما يعض غير ليلة على أول الشهر ؟

يا حظ من كنت ضيفهم أمس ... »

« إنك لا تدري من الأمر شيئاً ، لقد ربخنا

القضية ، ألم تعلم أنه كان بيننا وبين أبناء عمنا قضية

منظورة أمام المحاكم منذ أعوام عديدة ؟ هى الحقيقة

ولقد ربخنا القضية وصرت من الأغنياء المدودين ،

صديقاً ما يزال على حسن ظنه به ؟ ولكن هذا بعيد ، فليته يجد عملاً ولو نصف يومه المتكود هذا وبداله هذا أعسر مطلباً من الأول ، فألقى بنظرة في أركان الطريق يرجو وهو يأس أن يجد كيساً مملوءاً منسياً ...

وحملته قدماه وهو لا يدري إلى ميدان المحطة فنظر إلى بنائها ونهد بحسرة موجعة ، وجاس خلالها يطالع القطر المتأهبة للرحيل بلحظ حزين كئيب ويشهد المسافرين المتدافعين المهولين بحسد أليم وانتزع نفسه من المحطة ، واستأنف السير ، ومر الوقت لا يحس به ، حتى أدى المشى قدميه ، ونال التعب منه كل منال ، وخيل إليه في تدهوره أن مفاصله ينفك بعضها عن بعض ، وشعر — بعد طول الجهد — بقرصة الجوع تمزق بطنه الذي لم يستقبل شيئاً منذ عشاء الأمس الفاخر ، فسار يتخبط ، وذكريات القرية ، ومائدة الحاتي ، والحامى ، والناظر . تتمثل أمام مخيلته في صورة مثيرة تاركة خلفها الألم والجزع

والتقى في بعض تجواله الضال بشحاذ — وكانت آية الليل تحتل الآفاق التي ولت عنها أشعة الشفق — يسير متوكئاً على عكازه ، وعلى ظهره جوارق مملوء بما فيه من كسر الخبز ، فتعجب غاية التعجب أن يرجع هذا الشحاذ إلى مأواه آمناً مطمئناً ، سعيداً بما على ظهره وما في سراويله ، وأنت بمانى هو — غنى مديرية الشرقية السري — ألم الجوع والقهر ... فأى دنيا هذه ...

وأجبر الجوع تيسار تأملاته على الانقطاع فنبع الشحاذ عن كسب وقدجدت عيناه على جوارقه

ثم قصد إلى قريبه يائساً منفعلاً ، وحادثه في الأمر وارتاب الرجل في حقيقة القضية الراجحة لأنه لم يتعود من خليل الصدق ، وساءه أن يقترض في اليوم الثانى من الشهر فقال له باستياء شديد : —

« إنك تتصرف تصرف القصر التهورين وتسى إلى سمعتى وشرفى » فرد عليه بحماسة قائلا : « أقسم لك بشرى أننا كسبنا القضية ، وأن الذى أكد لي الخبر هو المحامى نفسه »

« آسف لأذن أصارحك بأنى لن أومن لك حتى يأتنى الخبر من إخوانك ، وإن آمن إن أنا أقرضتك اليوم أن تأتيني غداً وتمثل أمامى نفس المهزلة ، فلتتحمل عاقبة نزقك »

« أرجو أن تصدقني ... »

« لا تلج ... إني بدأت أحس بأن ما يفرق بين أهلينا جميعاً من الشقاق سيفرق بيننا »

فانتفض خليل من الغضب ، وامتلاً غيظاً ويأساً فضرب المكتب بقبضة يده ضربة شديدة وخرج وهو يدمدم بصوت حائق غير مفهوم

وكانت غضبة اليأس ، لأنه رى بنفسه في عزلة قاتلة وغدا لا مال له ولا معين ولا صديق ، فاستسلم للغضب وسب ولعن من دون جدوى لأن الغضب لا يستطيع أن يطوى به هذه الأميال التى تفصل بينه وبين قريته أو بينه وبين الراحة والطمانينة

وضرب في الأرض على غير هدى تقوده قدماه ذاهل الفكر ، حائر النفس ، لا يرى بصيصاً من النور ، ولا يهتدى إلى حل ، تتردد عيناه بين المارة والحوانيت والبيوت والركبات كأنه يتمنى أن تظفرا بمنقذ مجهول ينشله من ورطته وإفلاسه ... لو يجد

ولعل أبا نواس — وقد كانت حياته ليالي متصلة من نوع ليلة الأمس — رد في نهايته إلى مثل ما رد إليه هذا الصباح وهذا المساء من الألم والحن فأطلقها صرخة داوية كما ينفجر البركان من شدة تفاعل باطن الأرض. ولكن وأأسفاه نحن لا نذكر المعطات إلا حين لا تنفع إلا للعزاء والتأمل. وعرج إلى اليمين وثقلت خطاه وهو يمر أمام البيت الذي ولجه بالأمس مترنحاً

أمن الممكن أن يرجو هنا خيراً...؟ ومع هذا فمن الذي أطعمه من جوع...؟ وصعد مسرعاً وطرق الباب ثم دخل، فقابلته بترحاب وقالت له ضاحكة:

« لعلی رقت لك ... ؟ »

فقال مضطرباً:

« طبعاً... طبعاً... ولكني لست هنا لذاك »

« فلم أنت هنا إذا... ؟ » فتردد لحظة ولكنه

خشى أن يعقله التردد عن الكلام فقال:

« اصنع لي يا سيدتي، لقد فقدت نقودي كلها ولا ناصر لي ولا معين، وأنا في بلدكم هذا غريب، وبنيتي أن أعود إلى قريتي بالشرقية، وأنا — أقسم لك أني غني والحمد لله. فأقرضيني ريالاً فقط أردته اليك جنبها ذهبياً، وخذي علي ما تشائين من الضمانات، ولكن بالله لا ترفضني لأن الرفض معناه الموت والقنوط

« لعلك وجدت أن ثمن زجاجة الجمعة أرخص

بكثير مما دفعت بالأمس فجئت ... »

« أبداً أبداً... والله العظيم »

« فلعلك إذاً بلطجي ؟ »

فسال لعبه واتخلى قلبه، وتلف إلى أفذر لقمة فيه؛ ولا يجب فلو أنه نوى أن يصوم يومه لحل له الإفطار منذ ساعة على الأقل. وخيل إليه أنه أيسر على نفسه أن يمد يده بالسؤال إلى هذا المتسول من أن يعدها إلى أفندي محترم في مثل بزه، ولكن كيف يفعل ذلك...؟

وعرج الرجل إلى منطف هادي فاقرب منه وقلبه يدق بعنف في صدره وقال له بتضرع:

« يا عم... أعطني كسرة خبز لله »

فنظر إليه الشحاذ دهشاً وخصه من الرأس إلى القدم، أو بعبارة أخرى من الطربوش إلى الحذاء، ثم هز رأسه منكرأ مستغرباً وقال بلهجة مرّة:

« على الله! » فتوسل إليه بلهجة صادقة ووجه ناطق:

« لا تغرنك ثيابي... إني أكاد أموت جوعاً »

فتردد الرجل بين مصدق ومكذب ثم دس يده في جوائفه وناولته نصف رغيف، فارتد به إلى ركن مظلم كأنه ظفر بكتر لا يثمن والتهمه بشراة ولذة لا تقاس بها لذته بالأمس وهو جالس إلى مائدة الحاتي، ولكنه لم يمالك عواطفه فسحّت عيناه دمعاً ساخناً كما يبني لرجل يملك مالا يقل عن خمسين فدناً ويمد يده بالسؤال إلى شحاذ عاجز..

وإذ سكنت عنه الجوع عاد إلى السير على غير هدى، وإلى التفكير اليأس في معضلته، ووجد نفسه فجأة في عماد الدين، فتذكر ليلة الأمس القريب... حقاً إن الحياة عدو في ثياب صديق،

« بل أنا بئس قانط » فدفقت على صدرها وقالت :
 « يا لسوء حظي ... غيرى لا يرجع إليها في
 مثل حالتك هذه إلا من يكون قد بذر تحت قدميها
 أموالاً وضياعاً وأنت لم تنفق على سوى جنبيه أعرج »
 « أتوسل إليك أنا في ورطة شديدة ... »
 فقالت بهكم :

« إن كنت عاطلاً ... أوظفك في بيتي »
 « يا للداهية ... »

فقالت غاضبة :

« أتغضب وأنت تمد يدك سائلاً .. ؟ »

فأجاب : « هاك طربوشى رهينة »

فصمت هنيهة ، وتناول الموضوع من ناحيته
 الجدية ، ورمقت الطربوش والجاكتة بعين حاملة ..
 ثم قالت :

« والجاكتة أيضاً ... لأن الطربوش وحده
 لا يساوى شيئاً »

فتنفس الصعداء وخلع الجاكتة مسرعاً وقبض
 الريال وفر من أمامها كأنما اختطفه اختطافاً ، ولم
 يبق أمامه سوى أن يحزم متاعه النافه ، فقصد من
 توه إلى حجرته بالمدرسة . فلما وقع نظره على الفراش
 خارت قواه فارتقى عليه يبدلته أو على الأصح ينظرونه
 وراح في سبات عميق . واستيقظ مبكراً فنهض من
 فراشه وأخذ حقييته وترك المدرسة دون أن يودع
 أحداً . وعند منطفئ الطريق التقى بأحد الفراشين
 وكان قادماً من بيته قاصداً المدرسة فحياء الرجل
 بأدب — على رغم كل شئ — وأبدى استعداداً لخدمته
 بحمل الحقيبة إلى محطة الترام فأعطاه إياه شاكرآ ،

وسارا جنباً إلى جنب ، وسنحت منه نظرة عارضة
 إليه فارتجف جسده لأنه خيل إليه أنه يرى جاكتته
 عليه ، كان الرجل يرتدى جلباباً وجاكتة وطربوشاً
 ويسير مطمئناً لا يقع له في حسابان ما يقوم في نفس
 صاحبه من الشك والرعب . أما خليل فكان بنعم
 النظر في الجاكتة ولا يكاد يصدق ما ترى له عيناه .
 إنها جاكتته نفسه بقماشها وتفصيلها ، بل هذا الزر
 المكسور شاهد لا ترتقى إليه الشبهات ، فكيف
 حصل عليها ؟ أيمكن أن يكون قد سرقها ؟ إنه لا يهضم هذا
 الفرض ، ألعلمها إذا أعطته إياها أو بمعنى آخر أهديتها
 إليه ؟ إن هؤلاء النسوة اللاتي يرتعن تحت أقدامهن
 خيرة الشبان يرتعن بدورهن تحت أقدام أحط
 المخلوقات وأدنسها . إنه يعرف ذلك تمام المعرفة ،
 فلا مجال للشك .. ونحاشي النظر إلى الرجل وأبت
 كبريائه أن يوجه إليه أى سؤال أو يفتاحه في أى
 حديث . ومشى إلى جانبه شارد الفكر ساخن
 الرأس ملتهب العواطف حتى انتهى إلى المحطة وكر
 الرجل راجعاً دون أن يسمع كلمة شكر ...

أواه ... لقد كان وهو في محنة الفقر
 شاطراً محتالاً لا يشق له غبار ، يأتبه عيشه رغداً من
 كل مكان ، ولكن هذا لم يمنعه — وهو أخو مكر
 ودهاء — من أن يرى رجلاً هلفوتاً يسلبه لباسه
 علانية فلا يستطيع له رداً ، كما لم يمنعه — وهو
 صاحب ضياع وأموال — من أن يمد يده بالسؤال
 إلى شحاذ من أبناء السبيل وأن يطعم رغيته القدر
 وهو يبكي على قارعة الطريق ...

نجيب محفوظ